المجمع 13 (1439/2018)، 215-231

أثر اللُّغات السَّامية في تفسير الدَّخيل والمعرب
"بيعة" و"تابوت" و"صلوات" نماذج

مليكة ناعيم*

الملخَّص:

تضمَّن القرآن الكريم موادَّ لغويَّة من لغات غير العربيَّة، منها ما وظَّفه باللَّفظ ومنها ما دخل فقط بالمعنى، ومنها ما أخذ فقط الوزن. وتباينت وجهات المفسِّرين في الموضوع بين مثبت ومنكر ومتحفِّظ. وقلَّ توظيفهم للمقارنات اللُّغوية في تفسير القرآن الكريم، مِمَّا نتج عنه السُّكوت عن بعض القضايا اللُّغوية. وتهدف هٰذِهِ الدِّراسة إلى التَّنبيه إلى بعض المسكوت عنه في كتب التَّفسير مِمَّا له علاقة بالدَّخيل إلى اللُّغة العَرَبِيَّة من اللَّغات السَّامية، انطلاقًا من موادَّ محدَّدة، وهي: "بيعة" و"صلوات" و"تابوت".

توطئة:

يمثِّل تأويل النَّصِّ المقدَّس إشكالًا معقَّدًا في الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة، لانفتاحه على قضيَّتين تبدوان متناقضتين من منظور العربي المسلم:

أولاهما: قدسيَّة اللُّغة العربيَّة وأفضليَّتها الَّتي ارتقى بها بعضهم إلى الجزم بأنَّها لغة الجنَّة ولغة خطاب ربِّ العزَّة لآدم زمن توبته وأيَّام التَّقوى[1].

وثانيهما: الانفتاح على أنساق لغويَّة أخرى حضرت في القرآن الكريم أحيانًا باللَّفظ وآخر بالمعنى أو بصيغة صرفيَّة يلبسها اللَّفظ لأداء معنى جديد.

ويتجاذب هٰذانِ التَّيَّاران الباحثين في القرآن الكريم، حَتَّى شكّل المفسِّرون أقطابًا بحسب موقفهم من مكوِّنات "نسق القرآن اللُّغوي"، ومن خلال سؤالين رئيسين، وهما:

---

* كلِّيَّة اللُّغة العربيَّة، مرَّاكش، المغرب.

[1] وقد ناقش الإمام ابن حزم أدلَّة القائلين به وفنَّد ادِّعاءاتهم. ينظر كتاب الإحكام في أصول الأحكام، طبعة محقَّقة على مخطوطتين ومقابلة على النُّسخة الَّتي حقَّقها الشَّيخ أحمد شاكر، تقديم إحسان عبَّاس، ط.2، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1983، 1/32-35.

. هل هو عربيٌّ محض يمثِّل ظاهر قوله تعالى: "بلسان عربيٍّ مبين"[1]؟

. هل هو ينهل من غير اللُّغة العربيَّة من اللُّغات فتنفتح الآية السَّابقة على وجوه التَّأويل؟

ولعلَّ الصِّراع حُسم لأصحاب التَّيَّار الثَّاني، إذ بدا للعيان أَنَّ القرآن الكريم هو في لغته عربي وبلسان قومه كما كان في زمن نزول الوحي متأثِّرًا بأقوام تعايشت مع العربيَّة لأسباب مختلفة، ولعلَّ كون مكَّة ملتقى للقوافل التِّجاريَّة ومحجَّ الشُّعراء والأدباء يدعم الرَّأي. والمراد بعربيٍّ مبين إذن، هو مناسبة لغة القوم الَّذينَ نزل إليهم من حيث الأصيل والدَّخيل، وكذا من حيث ما يقبله النَّسق من إبدالات صوتيَّة وتغيُّرات دلاليَّة لا تزيد العربيَّة إِلَّا انفتاحًا وغنى، ولا تضيف إلى القرآن إِلَّا تأكيدًا لإعجازه وقوَّة في التَّحدِّي والمعارضة. وإذا أخذت اللُّغة العربيَّة من الفصائل اللُّغويَّة كلِّها هندو. أوربيَّة[2]وطورانيَّة[3] وحاميَّة[4]، فَإِنَّ

---

[1] سورة الشُّعراء، الآية 195.

[2] فصيلة اللُّغات الهنديَّة _ الأوربِّيَّة: وهي أكثر اللُّغات انتشارًا في العالم؛ إذ يتكلَّم بها أكثر سكَّان أوربَّا وأمريكا وأستراليا، وقسم كبير من سكَّان آسيا. ويندرج تحت هٰذِهِ المجموعة عدد من اللُّغات البائدة كالسِّنسكريتيَّة، والفارسيَّة القديمة، والهلويَّة، واللُّغات الجرمانيَّة، واليونانيَّة، والإغريقيَّة القديمة، كما يدخل ضمن هٰذِهِ المجموعة من اللُّغات المستعملة الحيَّة اللُّغات الهنديَّة، والفارسيَّة، والكرديَّة، والأفغانيَّة، والأرمينيَّة، والألبانيَّة، واللُّغات الأوربِّيَّة، والسُّلافيَّة والإسكندنافيَّة، وغيرها. حلمي خليل: مقدِّمة لدراسة فقه اللُّغة، دار المعرفة الجامعيَّة، 1993، ص.124.

[3] وتسميتها بالفصيلة من قبيل المجاز، وَإِلَّا فَإِنَّ هٰذِهِ الفصيلة تضمُّ لغات لا تربط بينها علاقات، وَلٰكِنْ مولر جمعها تحت هٰذا الاسم؛ احترازًا من كثرة التَّقسيمات. ومن هٰذِهِ الفصيلةِ اللُّغاتُ الصِّينيَّة، واليابانيَّة، والتُّركيَّة، والمغوليَّة، وغيرها. المصدر نفسه والصَّفحة نفسها.

[4] الحاميَّة سمِّيت بِهٰذا الاسم نسبة إلى حام بن نوح، وأفرادها هي، اللُّغات المصريَّة القديمة وهي الَّتي تفرَّعت منها اللُّغة القبطيَّة أو ما يعرف باللُّغة المصريَّة الحديثة، واللُّغة الأمازيغيَّة (الطَّوارق والقبائل واللِّيبيَّة والنَّيجر والرِّيف) في شمال إفريقيا، ولا تزال مستعملة، واللُّغات الكوشيَّة: نسبة إلى كوش بن حام، وهي لغات السُّكَّان الأصليِّين للقسم الشَّرقي من إفريقيا على حدود البحر الأحمر، ومنها اللُّغات الصُّوماليَّة ولغات مناطق من الحبشة والتَّشاديَّة (النَّيجر وغانا والطُّوغو والتِّشاد وجمهوريَّة أفريقية الوسطى). المصدر نفسه والصَّفحة نفسها.

الأخذ من شقيقاتها اللُّغات السَّاميَّة[1] أقوى؛ أوَّلًا بفعل الجوار والتَّعايش، وثانيًا لتقارب في النَّسق والسِّمات، فالعلاقة الَّتي تربط بينها، كما يقول ابن حزم، مثل العلاقة بين لهجات البلد الواحد[2]، مِمَّا يؤكِّد أنَّ تفسير القرآن الكريم يقتضي بالضَّرورة الانفتاح على اللُّغات الَّتي حضرت فيه بحسب السِّياقات الَّتي وردت فيها لتفسير الموادِّ اعتمادًا على أصولها احتراسًا من الخطأ في التَّأويل بإسقاط الأصول اللُّغويَّة وقواعد العربيَّة على الدَّخيل والمعرب، وبحثًا لِما عرفته من إبدالات صوتيَّة وصرفيَّة ودلاليَّة. وسأحاول في هٰذا البحث الوجيز الوقوف عند بعض الموادِّ اللُّغويَّة في القرآن الكريم، وهي: "صلوات" و"بِيَع" و"تابوت"، وتبيان بعض المسكوت عنه في كتب التَّفسير من قضايا صوتيَّة وصرفيَّة وتركيبيَّة نتيجة عدم استثمار المقارنات السَّاميَّة، أعني المقارنة بين العربيَّة وشقيقاتها اللُّغات السَّاميَّة، في التَّفسير.

1/ بِيَعٌ: في قوله تعالى: "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا"[3].

بالرُّجوع إلى كتب التَّفسير الَّتي تهتمُّ بالمدخل اللُّغوي والتَّركيبيِّ في القرآن الكريم، وقد عاينت حوالي مائة تفسير، نجد المفسِّرين يقفون في تفسير كلمة "بِيَع" عند حدود القول: معابد اليهود[4] أو معابد النَّصارى[1]، أو معابد اليهود والنَّصارى معًا[2]، ولا أجد منهم من وقف

[1] منها اللُّغة العربيَّة والحبشيَّة والعبريَّة والكنعانيَّة والآراميَّة والأكَّاديَّة. ينظر: بروكلمان: فقه اللُّغات السَّاميَّة، ترجمة رمضان عبد التَّوَّاب، مطبوعات جامعة الرِّياض، 1977، ص. ص. 11.13.

[2] ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، مج1، ج33/1.

[3] الحجّ، الآية:40.

[4] "أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عبَّاس في قوله: (لهدِّمت صوامع) الآية. قال: الصَّوامع الَّتي يكون فيها الرُّهبان والبيع مساجد اليهود، و(صلوات) كنائس النَّصارى والمساجد مساجد المسلمين". السُّيوطي، جلال الدِّين، الدُّرُّ المنثور في التَّفسير بالمأثور، تحقيق عبد الله عبد المحسن التُّركي، ط.1، القاهرة، مركز هجر للدِّراسات العربيَّة والإسلاميَّة 515/10.

عند دلالة الكلمة في ذاتها ولا في أصلها أو علاقة الدَّال بما يدلُّ عليه، بل لم يذكر نوعها من حيث العدد إلَّا قليل من المفسِّرين ومنه قول ابن عطيَّة: "والبيع كنائس النَّصارى واحدها بيعة قال الطَّبريُّ: وقيل هي كنائس اليهود ثُمَّ أدخل عن مجاهد ما لا يقتضي ذٰلِكَ"[3]. وأبو حيَّان الغرناطي بالقول: "البيع كنائس النَّصارى واحدها بيعة، وقيل كنائس اليهود"[4]. وذهب بعضهم ومنهم الماورديُّ إلى أنَّها اسم أعجميٌّ معرب وقال القرافي: اسم لمتعبَّد النَّصارى، اسم مرتجل غير مشتقٍّ. ونقل الألوسي من دون تعقيب عن الرَّاغب ربطه بالفعل باع في أغرب تخريج له فقال: "والبيع واحدها بيعة بوزن فعلة وهي مصلَّى النَّصارى ولا تختصُّ برهبانهم كالصَّومعة، قال الرَّاغب: فإن يكن ذٰلِكَ عربيًّا في الأصل فوجه التَّسمية به لما قال سبحانه: "إِنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم"[5]. وقيل هي كنيسة اليهود"[6]. في حين أكثروا القول عن جارتها في السِّياق "صلوات" من حيث الدَّلالة

---

[1] وهو القول المشهور في كتب التَّفسير، ومنه قول البيضاويّ: "صوامع صوامع الرَّهبانيَّة. وبيع بيع النَّصارى وصلوات كنائس اليهود، سمِّيت بها لِأَنَّها يصلَّى فيها، وقيل أصلها صلوتا بالعبرانيَّة فعرِّبت". البيضاوي القاضي ناصر الدِّين: تفسير البيضاوي المسمَّى أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل، حقَّقه وعلق عليه وأخرج أحاديثه وضبط نصَّه محمد حسن حلَّاق ومحمَّد أحمد الأطرش، ط.1، دار الرَّشيد، دمشق-بيروت، مؤسَّسة الإيمان، بيروت، لبنان، 2000، 73/4.

[2] قال حسين فضل الله: (وبيع): البِيع جمع بيعة بكسر الباء، وهي معبد لليهود والنَّصارى". من وحي القرآن، دار الملاك للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، لبنان، 1998، 151/16.

[3] ابن عطيَّة: المحرِّر الوجيز، تحقيق عبد السَّلام عبد الشَّافي محمَّد، ط.1. دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، 2001، 125/4.

[4] أبو حيَّان: البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ط.1، بيروت، دار الكتب العلميَّة، 2001، 345/6.

[5] سورة التَّوبة، الآية:111.

[6] الألوسي، شهاب الدِّين محمود: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، لبنان، 163/17.

والقراءات القرآنيَّة المختلفة حولها، لٰكِنَّها لم تستثمر أيضًا كما سيجيئ في هٰذا البحث. غير أنَّ المسألة يسيرة ومعقَّدة في الآن نفسه إذا انفتحنا بها على التَّطوُّرات الصَّوتيَّة الَّتي عرفتها بعض اللُّغات السَّاميَّة وإذا ربطناها بالقوم الَّذينَ تخصُّهم، وهو في الآن نفسه سبب التَّعقيد، ذٰلِكَ أَنَّ أصل بيعة بيضة ولا علاقة لها بالفعل باع كما اقترح بعض المفسِّرين؛ وهي لفظة تعكس اعتباطيَّة العلاقة بين الدَّال والمدلول وعلاقة الجزء بالكلِّ استمدَّت من شكل القبَّة الَّتي كانت توضع فوق هٰذِهِ المعابد في شكل بيضويٍّ، بحسب التَّطوُّر الصَّوتيِّ المعقَّد الَّذي عرفته الضَّاد في اللُّغة الآراميَّة؛ إذ مرَّ بمرحلتين:

- تطوَّر أَوَّلًا إلى صوت القاف وقيل غين، فصارت بيقة أو بيغة بحسب قول بروكلمان[1].
- ثُمَّ تطوَّر ثانيًا إلى صوت العين فصارت بيعة.

وهو من أغرب التَّطوُّرات الصَّوتيَّة المؤكَّدة الَّتي لم يجد لها معظم من اشتغل على الدَّرس السَّامي المقارن تفسيرًا[2]، وأشار بروكلمان إلى أَنَّهُ على سبيل المخالفة من خلال كلمة أرعا وهي الأرض والألف الممدودة في الأخير هو أداة التَّعريف الآراميَّة[3]، وهو قول يردُّه اطِّراد هٰذا القلب في الآراميَّة كما نلحظ في بيعة، ولعلَّ أقرب تفسير لِهٰذِهِ الظَّاهرة وما شاكلها في اللُّغات السَّامية هو التَّصحيف والابتعاد عن الأصل، ذٰلِكَ كله بسبب تأخُّر التَّأليف وندرته، وتقارب الحروف في الرَّسم وتأخُّر ظهور حركات الإعجام والتَّحريف، الَّذي تعرَّضت له اللُّغة أمام توالي الكتبة وكثرتهم وتأخُّر زمن الكتابة، وغياب الحركات والنِّقاط المميِّزة كما كانت العربيَّة قبل التَّنقيط والإعجام فحرف "ص" يمكن أن يقرأ صادًا أو طاء أو ظادًا أو ضادًا

---

[1] بروكلمان، كارل: فقه اللُّغات السَّاميَّة، ترجمة رمضان عبد التَّوَّاب، مطبوعات جامعة الرِّياض، 1977، ص. 51.50.

[2] حجازي، محمود فهمي: علم اللُّغة العربيَّة مدخل تاريخي مقارن في ضوء التُّراث واللُّغات السَّاميَّة، الكويت، وكالة المطبوعات، د.ت، ص.199.

[3] بروكلمان: فقه اللُّغات السَّاميَّة، ص50-51.

وكذا بالنِّسبة لأصل الباء والتَّاء والياء والنُّون وسط الكلمة، وهي تطوُّرات يُلحظ أثرها جليًّا في بعض القراءات القرآنيَّة ومنها حصب وحطب مثلًا.

فالقاف والعين والضَّاد متقاربة في أصلها في شكل دائرة تتميَّز فقط إِمَّا بخطَّين وسطها بالنِّسبة للضَّاد وَإِمَّا شرطة قصيرة بالنِّسبة للقاف ونقص في الدَّائرة بالنِّسبة للعين، فكان طبيعيًّا أن يحدث هٰذا التَّطوُّر عبر التَّاريخ ويواكبه تطوُّر في النُّطق إلى حدِّ ضياع بعض الأصوات، كما يحدث لبعض الأصوات في العربيَّة اليوم إذ يُلحظ أَنَّها لا تنطق نطقًا صحيحًا إِلَّا لدى القلَّة، وبدأت تضيع من الكتابة ومنها الثَّاء والذَّال والظَّاد، فمراقبة بمنجزات الطُّلَّاب أجد أَنَّها حروف آيلة للانقراض نطقًا وربَّما كتابة لتنوب عنها بالتَّرتيب نفسه التَّاء والدَّال والضَّاء أو الدَّال. وَهٰذِهِ المسألة تقتضي منَّا التَّريُّث في إصدار الأحكام بخصوص أصوات اللُّغات السَّاميَّة وحروفها، فهي في أصلها كلّها موحَّدة، ثُمَّ تطوَّرت إِمَّا نطقًا دون الرَّسم كما يحدث للعربيَّة الآن وإن بدا الرَّسم أيضًا يسير نحو الضَّياع كما أشرت من قبل وبدأ النُّطق الصَّحيح ينحصر في نطق النُّخبة ومنها قرَّاء القرآن الكريم، وَإِمَّا رسمًا دون النُّطق كما حدث للأكَّاديَّة بتأثير من السُّومريَّة الَّتي لم تكن لها رموز لبعض الحروف في خطِّها الاسفيّيني ولاسيما حروف الحلق، وَإِمَّا نطقًا وكتابة كما نرى هنا بالنِّسبة للآراميَّة في حرف الضَّاد وإن لم نستحضر مراحل التَّطوُّر بحسب الفترات الزَّمنيَّة لها. وَهٰذا ما ألمح إليه بروكلمان في إشارته، ولعلَّ هٰذِهِ المسألة أيضًا تفتح إمكان مقاربة التَّطوُّر الدَّلالي الَّذي عرفته بعض الألفاظ العربيَّة وإيجاد مخرج آخر للتَّرادف بجانب القول إِنَّهُ اختلاف بين اللَّهجات العربيَّة بأن نقول إِنَّهُ اختلاف بين اللُّغات السَّاميَّة، من مثل القول إِنَّ ضرب بمعنى السَّعي هو من أصل عبر وعرب، وليس من ضرب بمعناه المشهور والشَّائع، ولعلَّ هٰذا ما استند إليه صاحب مقال مجلَّة سومر العراقيَّة حين قال إن ارم وعبر وعرب

بمعنى واحد وهو السَّعي في الأرض[1]، واتَّخذه دليلًا على أنَّ العربيَّة هي الأصل لكلِّ شقيقاتها، لِأَنَّنا باعتماد هٰذا التَّطوُّر الصَّوتي تكون عرب الآراميَّة هي ضرب العربيَّة. وهو باب مفتوح للبحث، كما أَنَّهُ أيضًا مجال لمراجعة تقسيم اللَّهجات العربيَّة وإيجاد مخرج لكثير من قضاياها لاسيَّما الصَّوتيَّة.

وَهٰذا يُظهر أَنَّ القرآن الكريم يقتضي قراءة نسقيَّة لا تستثني أيَّ جزئيَّة مهما بدت صغيرة ومنها بعض الإبدالات الصَّوتيَّة الَّتي تحضر في القراءات القرآنيَّة وأحيانًا الشَّاذَّة والصِّيَغ الصَّرفيَّة، وَهٰذا مجال خصب للبحث والدِّراسة.

2/ "صلواة" وسؤال الرَّسم:

يثار السُّؤال السَّابق نفسه بخصوص هٰذِهِ المادَّة في الآية السَّابقة نفسها لٰكِنْ من زاوية أخرى وهي الرَّسم والأصل، وكتابتها في القرآن بالواو بعد اللَّام يؤكِّد أَنَّ الأصل الضَّمَّة وليس الفتحة الممدودة كما هو الشَّأن بالنِّسبة لمشكاة وزكاة...[2]، ويتغيَّر نهج تعامل المفسِّرين معها بإيعاز من القرَّاء والقراءات القرآنيَّة لٰكِنَّها لم تستثمر في الاستنتاج والتَّفسير. وبالرُّجوع إلى المصادر سالفة الذِّكر نفسها أجد أَنَّ معظم المفسِّرين ذكروا أَنَّ صلوات كنائس اليهود[3]. وهناك من بحث المادَّة وأقرَّ بأنَّها من الألفاظ الدَّخيلة في القرآن، غير أَنَّ معظمهم يجعلونها ذات أصول عبريَّة، يقول أبو السُّعود: "وقيل أصلها صلوتا بالعبرانيَّة"[4]، وطرح الألوسي

---

[1] مقال لعبد الحقّ فاضل بعنوان: عربي، آرامي، عبري، نشر بالعدد من مجلة سومر 1959، وردَّ عليه إبراهيم السَّامرَّائي في العدد من مجلَّة سومر 1959. ينظر: ردّ على مقال عربي، آرامي، عبري، مجلَّة سومر، العدد 1989،3، ص. 38.41.

[2] برجستراسر، جوتهالف: التَّطوُّر النَّحوي للُّغة العربيَّة، أخرجه وصحَّحه وعلَّق عليه رمضان عبد التَّوَّاب، ط.4، القاهرة: مكتبة الخانجي، 2003، 218.

[3] منهم: ابن عاشور محمَّد الطَّاهر: المحرّر الوجيز، تونس: الدَّار التُّونسيَّة للنَّشر، 1984، 278/17.

[4] أبو السُّعود بن محمَّد الحنفي: إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مطبعة السَّعادة، د.ت، 29/4.

مشكل تصريف المادَّة في علاقته بالأصل غير المحدَّد بدقَّة وما في الأمر من خلاف فقال: "معرب صلوثا بالثَّاء المثلَّثة والقصر ومعناها بالعبرانيَّة المصلَّى. وروي عن أبي رجاء والجحدريّ وأبي العالية ومجاهد أَنَّهُمْ قرأوا بِذٰلِكَ. والظَّاهر أَنَّهُ على هٰذا القول اسم جنس لا علم قبل التَّعريب وبعده، لٰكِنْ ما رواه هرون عن أبي عمرو من عدم تنوينه ومنع صرفه للعلميَّة والعجمة يقتضي أَنَّهُ علم جنس إذ كونه اسم موضع بعينه كما قيل بعيد فعليه كان ينبغي منع صرفه على القراءة المشهورة، فلذا قيل إنَّه صرف لمشابهته للجمع لفظًا كعرفات. والظَّاهر أَنَّهُ نُكِّرَ إذ جُعِل علمًا لَمَّا عُرِّب، وَأَمَّا القول بِأَنَّ القائل به لا ينوِّنه فتكلُّف قال به الخفاجي"[1]. وكثير منهم ينقل وجوه القراءات القرآنيَّة الكثيرة من غير تفسير ولا مساءلة لطبيعة التَّعدُّد المميّز لها عن غيرها، إذ القُرَّاء كانوا الأقرب إلى تمثُّل أصل المادَّة مع تباين بحسب نظرتهم لها هل هي مفردة أم جمع، وتردُّدهم له ما يسوّغه كما سنرى. ولم يلتفت كثير من المفسِّرين إلى الأمر، قال السَّمين الحلبي مثلًا: "صلوات بفتح الصَّاد واللَّام جمع صلاة (...) قال الكلبي والضَّحاك كَذٰلِكَ: إِلَّا أَنَّهُما أعجما التَّاء بثلاث من فوقها والجحدريُّ أيضًا وأبو العالية وأبو رجاء ومجاهد كَذٰلِكَ:، إِلَّا أَنَّهُمْ جعلوا بعد التَّاء المثلَّثة ألفًا، فقرؤوا صلوثا وروي عن الجحدريّ هٰذِهِ التَّاء المثنَّاة من فوق أيضًا..."[2]. لٰكِنَّهُ وقف عند حدود هٰذا النَّقل من دون إشارة ولا تعقيب.

وَهٰذا القول نقله كثير من المفسِّرين مع اختلاف في حجم النَّقل بين مسهب ومختصر، وأضاف صاحبه ربط اختلاف القراءات بأصل اللَّفظة غير العربيّ نقلًا عن غيره من غير حسم يقول: "قيل: هي سريانيَّة أو عبريَّة دخلت في لسان العرب وَلِذٰلِكَ كثر فيها اللُّغات"[3]. وهي إشارة ذكيَّة لٰكِنَّها مبنيَّة على الظَّنّ ولم تستثمر في التَّفسير والتَّأصيل للَّفظ. وذهب

---

[1] الألوسي: روح المعاني، 163/17.

[2] السَّمين الحلبيُّ، أحمد بن يوسف، الدُّرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد محمَّد الخرَّاط، دار القلم، دمشق، د.ت، 285.284/8.

[3] المصدر نفسه، 285/8.

بعضهم إلى أَنَّ اللَّفظ من الشَّواذ الَّتي لا يعرف لها أصل قال الطُّوسي: "وقرأ الضَّحَّاك صلوث بثلاث نقط، وقال: هي مساجد اليهود، وَهٰذِهِ شواذُّ لا يقرأ بها ولا يعرف لها في اللُّغة أصل"[1].

وأهمُّ لفتة في التُّراث العربيّ نجدها عند ابن عاشور فقد أنكر على اللُّغوِيين العرب إغفال هٰذِهِ المادَّة وقدَّم لها تفسيرًا يبين عن معرفته باللُّغات وحرصه على التَّأصيل لألفاظ القرآن احتراسًا من الخطأ في التَّأويل، يقول: ""والصَّلوات" جمع: صلاة وهي هنا مراد بها كنائس اليهود عُرِّبت عن كلمة (صلوتا) (بالمثلَّثة في آخره بعدها ألف). فلمَّا عُرِّبت جعلوا مكان المثلَّثة مثنَّاة فوقيَّة وجمعوها كَذٰلِكَ:. وعن مجاهد والجحدريّ، وأبي العالية، وأبي رجاء أَنَّهُمْ قرأوها هنا (وصلواث) بمثلَّثة في آخره. وقال ابن عطيَّة: قرأ عكرمة ومجاهد (صلويثا) بكسر الصَّاد وسكون اللَّام وكسر الواو وقصر الألف بعد الثَّاء (أي المثلَّثة كما قال القرطبيُّ) **وَهٰذِهِ المادَّة قد فاتت أهل اللُّغة وهي غفلة عجيبة"**[2]. مبيّنًا بِهٰذا القول أهميَّة العناية بالدَّخيل والمعرب في التَّفسير. وهي إشارة لطيفة من ابن عاشور.

إِنَّ اختلاف القرَّاء هنا لا ينحصر في إبدال حرفين متجانسين التَّاء والثَّاء بحسب ما يقبله النَّسق العربيُّ، كما قال الكثير من المفسِّرين، وَإِنَّما الأمر يرتبط في اللُّغة الأصل وهي الآراميَّة بتغيير المفرد بالجمع والعكس، مع تردَّد بين التَّنكير والتَّعريف بحسب قاعدته في اللُّغة الأصل، وردُّ أداة التَّعريف إلى الأصل، فصلوثا بالثَّاء المثلَّثة مفرد والألف في آخر اللَّفظ هي أداة التَّعريف في اللُّغة الآراميَّة، وَهٰذا يحسم كون اللَّفظة آراميَّة، وأصلها بمعنى انحنى[3]،

---

[1] الطُّوسي، أبو جعفر محمَّد بن الحسن: التِّبيان في تفسير القرآن، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، 321/7.

[2] ابن عاشور: تفسير التَّحرير والتَّنوير، 278/17.

[3] معظم معاجم اللُّغة العربيَّة ذكرت أَنَّ أصلها الدُّعاء وهو معنى المادَّة في اللُّغة العربيَّة وليس في الأصل الآرامي. ينظر على سبيل المثال: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدِّين: لسان العرب، دار صادر، 2003، مادة صلا.

ويؤيّد قول من قال إِنَّها معابد الصَّابئة، وهم المندائيُّون عبدة الكواكب والنُّجوم في الآراميَّة الشَّرقيَّة، قال مكّي: وروي أَنَّ مساجد الصَّابئين تسمَّى صُلُوثا وَبِذٰلِكَ قرأ الكلبيُّ أعني بالثَّاء المعجمة من فوق"، ويردُّ من قال إِنَّها من أصل عبرانيٍّ وهم كثر، منهم الزَّمخشريُّ وابن الجوزي قال: "وهي بالعبرانيَّة صلوثا". ولا يمنع أن تكون دخلت إلى اللُّغة العبريَّة أيضًا. وجمع أبو حيَّان بين الأمرين ونبَّه إلى نهج جميل في التَّعامل مع الألفاظ الدَّخيلة في كلام العرب، قال: "قيل هي مساجد اليهود هي بالسِّريانيَّة مِمَّا دخل في كلام العرب، وقيل: عبرانيَّة وينبغي أن تكون قراءة الجمهور يراد بها الصَّلوات المعهودة في الأمم، وَأَمَّا غيرها ما تلاعبت فيه العرب بتحريف وتغيير فينظر ما مدلوله في اللِّسان الَّذي نقل منه فيفسَّر به"[1]. لقد سطَّر أبو حيَّان بِهٰذا القول نهجًا للتَّعامل مع ألفاظ القرآن الكريم وجزم بِأَنَّ فيه من الألفاظ غير العربيَّة ما يقتضي فهمه الرُّجوع إلى لغته الأصل لإدراك المعنى الصَّحيح والاحتراس مِمَّا وقع في بعض الألفاظ من التَّحريف والتَّصحيف ومن الخطإ في التَّفسير، غير أَنَّ كثيرًا من المفسِّرين لم يتنبهوا إلى هٰذِهِ المسألة مِمَّا جعل في كتب التَّفسير بعض الثَّغرات ولاسيما في الجانب المعجميّ. وصلوتا بالتَّاء المثنَّاة هي الجمع كما كتبت في الرَّسم القرآني، لِأَنَّ الثَّاء والتَّاء بنوعيها (المبسوطة والمربوطة)، تختزل في الآراميَّة إلى رسم واحد وهو التَّاء المربوطة في العربيَّة في أَيّ موقع في الكلمة، وَأَنَّها حذفت الثَّاء الأصل في الجمع لئلَّا يتوالى المتماثلان وعوِّضت بتاء الجمع وقبلها ألف التَّأنيث، ولم تُعَرَّف لِأَنَّ الموقع موقع تنكير بدليل الكلمات الَّتي عطفت عليها: بيع ومساجد وصوامع، وقد نبَّه على ذٰلِكَ الآلوسي في نصِّه المذكور أعلاه، ومع ذٰلِكَ وجد من قرأ بالتَّعريف فقرأ صلوتا، والسِّياق يناسبه التَّنكير لينسجم اللَّفظ مع المعطوف عليه والمعطوف أيضًا، لِأَنَّها جاءت معطوفة على صلوات وعطفت عليها مساجد. وَهٰذا يؤكِّد أَنَّ التَّأصيل مهمٌّ لا للمعجم والتَّصريف فحسب وإنَّما للتَّركيب أَيْضًا.

[1] أبو حيَّان: البحر المحيط، 347/6.

إنَّ هٰذا يوحي بضرورة الاهتمام بالقضايا الصَّوتيَّة والانتباه إلى القراءات القرآنيَّة فهي تتضمَّن مادَّة علميَّة أساس لقراءة لغة القرآن الكريم وتفسيره، ومعرفة التَّطوُّرات الصَّوتيَّة وطبيعة القلب والإبدال في اللُّغات السَّاميَّة، والانتباه إلى حكمة القرآن في الحكاية والالتزام بدقائق الخصائص في اللُّغة المحكيَّة، ويقاس على ما ذكر: الطُّور وسجِّيل والزَّكاة وحنيف، وغيرها كثير.

3/ تابوت ووزن فاعول:

لم يدرج النَّحويُّون العرب وزن فاعول ضمن الأوزان العربيَّة القياسيَّة، ولم يقرَّها مجمع اللُّغَة العربيَّة بالقاهرة إلَّا سنة 1963 بعد أن اطَّردت المادَّة في كلام العرب للدَّلالة على الآلة[1]. وعلى الرَّغم من غرابة هٰذا الوزن على النَّسق العربيِّ، فَإِنَّهُ حاضر في كلام العرب، ويتَّخذ دلالات ثلاث: اسم العلم واسم الآلة والصِّفة. وقد ورد بِهٰذِهِ الأقسام كلِّها في القرآن الكريم، فمن العلم داود، ومن الصِّفة طالوت[2] وجالوت[3]، ومن الآلة ماعون[4]. وَهٰذا يقتضي بحث هٰذِهِ الصِّيغة في ضوء هٰذا التَّصنيف مع الحفر في الأصول والميز في الدَّلالات بين الصِّفة وما فيها من مبالغة وتكثير، والآلة الدَّالة على حيِّز مفرد ثُمَّ اسم العلم. وسأقف هنا عند نموذج واحد فقط أبيِّن من خلاله بعض ما يمكن ملاحظته في كتب التَّفسير من تمحُّل نتيجة عدم الاهتمام بالأصل غير العربيِّ للمادَّة، وهو تابوت، من قوله تعالى: "وقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِه أَنْ يَأْتِيكُم التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّة مِمَّا تَرَكَ آل مُوسَى وَآل هَارُونَ تَحْمِلُهُ المَلَائِكَة"[5].

---

[1] ينظر: رجاء عبد الرَّحيم خشيم، دلالة فاعول، مجلَّة دراسات تربويَّة، العدد18، نيسان 2012، ص101.136، ص. 102. نقلًا عن مجلَّة مجمع اللُّغة العربيَّة، مج46، عدد3، 599.

[2] سورة البقرة، الآيتان 247 و249.

[3] سورة البقرة، الآيات: 249و250و251.

[4] سورة الماعون، الآية 7.

[5] سورة البقرة، الآية 248.

قال الزَّمخشري في تفسيره: "فإن قلت ما وزن التَّابوت؟ قلت لا يخلو أن يكون فعلوتا أو فاعولا، فلا يكون فاعولا لقلَّته، نحو: سلس وقلق، وَلِأَنَّهُ تركيب غير معروف، فلا يجوز ترك المعروف إليه، فهو إذن فعلوت من التَّوب، وهو الرُّجوع، وَلِأَنَّهُ ظرف توضع فيه الأشياء وتودعه، فلا يزال يرجع ما يخرج منه"[1].

لقد تكلَّف الزَّمخشري في إيجاد مخرج لِهٰذِهِ الصِّيغة وحجَّته أَنَّ أمثلتها قليلة في العربيَّة والحرص على إثبات أصالة اللَّفظ في كلام العرب، وهنا يطرح السُّؤال: ما علاقة اسم الآلة تابوت بالرُّجوع إلى ما يوضع فيه، وهو الوتب أو التَّوب، فلم ترد هٰذِهِ العلاقة لا في العلاقات الحقيقيَّة ولا في المجازيَّة في البلاغة العربيَّة. وما لم ينتبه إليه الزَّمخشري أَنَّ مادَّة تاب أَيْضًا الَّتي استعاض عنها بدليل أَنَّها نادرة دخلت إلى العربيَّة من الآراميَّة ومقابلتها في الآراميَّة ثاب بمعنى رجع وفي العبريَّة شاب[2]. مِمَّا يعني أَنَّ المادة دخلت باشتقاقاتها إلى العربيَّة. ثُمَّ إِنَّ القول بعدم جواز البحث في غير المعروف غير معلَّلة علميًّا بل القليل والشَّاذُّ يقتضيان البحث في أسباب الوقوع، مع التَّأصيل له من غير تكلُّف في إيجاد مرجع له في اللُّغة العربيَّة، وقد قال النَّحويُّون العرب ما جاء على أصله لا يسأل عن علَّته؛ بمعنى أَنَّ ما لم يعرف أصله هو الَّذي يقتضي البحث والتَّعليل. والتَّعليل نفسه نجده عند ابن عطيَّة؛ إذ فنَّد قول مجاهد إِنَّ الطُّور، من سورة الطُّور الآية.1، لفظ سريانيٌّ، قال: "وقال مجاهد في كتاب الطَّبري: الجبل بالسِّريانيَّة، وَهٰذا ضعيف، لِأَنَّ ما حكاه في العربيَّة يقضي على هٰذا، ولا خلاف أَنَّ في شبه جزيرة سيناء جبلًا يسمَّى بـ"الطُّور" وهو طور سيناء"[3]. وَهٰذا حجَّة عليه لِأَنَّ شبه جزيرة سيناء كانت منطقة أراميَّة قبل أن تكون عربيَّة، وقد اتَّضح الآن

[1] الزَّمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: الكشَّاف عن حقائق غوامض التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل، ط.1، مكتبة العبيكان، 1998، 474/1

[2] برجستراسر، جوتهالف: التطور النحوي للغة العربية، 223.

[3] ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 185/5.

أَنَّ: "الصِّيَغ الصَّرفيَّة والتَّراكيب النَّحويَّة هي الفيصل في الحكم على انتماء لفظة من الألفاظ إلى لغة بعينها، وكذا في انتماء اللَّهجات.

وعلى الرَّغم مِمَّا في قول الزَّمخشري السَّابق من تكلُّف فقد نقله بنصِّه من جاء بعده، وأضاف الغرناطي في البحر المحيط القول: إِنَّ وزنه فاعول ولا يعرف له اشتقاق ولغة فيه التُّابوه بالهاء آخرًا ويجوز أن يكون بدلًا من التَّاء كما أبدلوها منها في الوقف في مثل طلحة فقالوا طلحه، ولا يجوز أن يكون فعلوتا كملكوت من تاب يتوب لفقدان معنى الاشتقاق فيه"[1]. وهي إشارة ذكيَّة من عالم بلغات ساميَّة وشرقيَّة، لم يفسِّرها حسب النَّهج الَّذي رسمه في القول السَّابق، ولم يحسن استثمارها لاعتماده على قول الزَّمخشري السَّابق؛ وَإِلَّا فالقول بعدم معرفة أصل الاشتقاق يفيد أَنَّ المادَّة ليس لها جذور في العربيَّة كما أَنَّ إبدال الهاء من التَّاء له في السِّريانيَّة ما يفسِّره وهو أَنَّ التَّاء في اللُّغَة الآراميَّة دائمًا مربوطة. وسبب الوهم هو أَنَّ المفسِّرين لم يميِّزوا في المادَّة بين ما هو للتَّكثير وبين ما هو للآلة. ولعلَّ المفسِّر الوحيد الَّذي صرَّح بأصل فاعول الأعجمي هو ابن عاشور، يقول: "اسم أعجميٌّ معرب فوزنه فاعول، وَهٰذا الوزن قليل في الأسماء العربيَّة، فيدلُّ على أَنَّ ما كان على وزنه إنَّما هو معرب مثل ناقوس وناموس...والتَّابوت بمعنى الصُّندوق المستطيل"[2]. وهي نفسها الحجَّة الَّتي اعتمدها الزَّمخشري النَّدرة مع اختلاف بينهما في تأويله، ولم يعيِّن ابن عاشور أَيْضًا الأصل لٰكِنْ حسبه أن نبَّه إلى أَنَّهُ دخيل، وهي صيغة آراميَّة دالَّة على الآلة واطَّردت في أسماء الأعلام وفي الصِّفات للتَّكثير. فكان أيسر السُّبل القول إِنَّ لفظة تابوت على وزن فاعول من مادَّة شاب الآراميَّة دخلت إلى العربيَّة بالصِّيغة والمعنى، وَأَنَّهُ يقف فيه الآرام على الهاء لِأَنَّهُمْ لا يقفون على التَّاء في آخر الكلمة وَإِنَّما على الهاء مع التَّذكير بِأَنَّ التَّاء تكتب مربوطة ورسمها شبيه بالهاء في آخر الكلمة. ومثل هٰذا كثير في كتب التَّفسير ونقلت هٰذِهِ المادَّة فقط للتَّنبيه.

---

[1] أبو حيَّان: البحر المحيط، 269/2.

[2] ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير، 491/2.

خلاصة: يستفاد من هٰذا البحث:

- أَنَّ اللُّغات السَّاميَّة تمثِّل مرجعًا رئيسًا لبحث كثير من القضايا اللُّغويَّة المسكوت عنها في القرآن في مختلف مستويات الدَّرس اللُّغويِّ، ومنها الصِّيغ.
- أَنَّ معرفة قوانين الإبدال الصَّوتي في العربيَّة واللُّغات السَّاميَّة كفيلة بأن تحلَّ كثيرًا من المشكلات المتعلِّقة بأصول الكلمات ذات الصُّور الصَّوتيَّة المختلفة من مثل صلوثا وصلوتا.
- أَنَّ دراسة الدَّخيل من هٰذِهِ اللُّغات السَّاميَّة إلى العربيَّة يقتضي الدِّراية بِهٰذِهِ اللُّغات لمعرفة أصول الكلمات المعرَّبة معرفة دقيقة، مع التَّنبيه هنا إلى ضرورة الميز بين الدَّخيل وبين المشترك السَّامي.
- أَنَّ كتب التَّفسير تمثِّل مرجعًا رئيسًا وهي بحاجة إلى سدِّ بعض الفراغات النَّاتجة عن عدم استثمار اللُّغات السَّاميَّة في التَّفسير.
- أَنَّ القراءات القرآنيَّة واللَّهجات العربيَّة تمثِّل مرجعًا وخزَّانًا لكثير من الظَّواهر السَّاميَّة في اللُّغة العربيَّة.
- أَنَّ القوانين الصَّوتيَّة في اللُّغات السَّاميَّة وقواعد القلب والإبدال تحتاج إلى مزيد من البحث وتمثِّل مرجعًا مهمًّا في دراسة المعرب والدَّخيل وضبط المعجم.
- أَنَّ الصِّيغ الصَّرفيَّة في اللُّغة العربيَّة وفي لغة القرآن الكريم بالخصوص بحاجة إلى مزيد من الدِّراسة في ضوء المقارنات السَّاميَّة من حيث البناء ومن حيث المعنى.
- أَنَّ كثيرًا من الظَّواهر اللُّغويَّة المسكوت عنها في التُّراث اللُّغويِّ العربيِّ تجد تفسيرًا لها في اللُّغات السَّاميَّة.
- وَأَنَّ كتب التَّفسير تتضمَّن مادَّة علميَّة كثيرة تحتاج فقط إلى ملء بعض الثَّغرات من خلال استثمار المقارنات اللُّغويَّة لٰكِنْ مع التَّنبيه على ضرورة الانفتاح على كتب تفسير

أهملت من مثل اللُّباب وغيره وألَّا نبقى دائمًا حبيسي كتب التَّفسير المشهورة على الرَّغم من أهمِّيَّتهما.

- وَأَنَّ لغة القرآن الكريم تقتضي قراءة نسقيَّة لا تستثني أيَّ جزئيَّة مهما بدت صغيرة من مثل بعض التَّبدُّلات الصَّوتيَّة الَّتي تحضر في القراءات القرآنيَّة المتواترة والشَّاذَّة والصِّيغ الصَّرفيَّة غير المطَّردة من مثل فاعول وشفعل وهفعل.

وأختم بالقول إنَّ توظيف القرآن الكريم للُّغات ضرب من ضروب الإعجاز يعكس تمثُّله للغة القوم والبيئة وقيمهم الأساس في التَّعايش والتَّسامح وعالميَّة رسالته.

المصادر والمراجع:

الألوسي، شهاب الدِّين محمود. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني**. بيروت: دار إحياء التُّراث العربي، د.ت.

برجستراسر، جوتهالف. **التَّطوُّر النَّحوي للُّغة العربيَّة**. أخرجه وصحَّحه وعلَّق عليه: رمضان عبد التَّوَّاب. ط.4. القاهرة: مكتبة الخانجي، 2003.

بروكلمان، كارل. **فقه اللُّغات السَّاميَّة**. ترجمة: رمضان عبد التَّوَّاب. د.م: مطبوعات جامعة الرِّياض، 1977.

البيضاوي، القاضي ناصر الدِّين. **تفسير البيضاوي المسمَّى أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل**. حقَّقه وعلَّق عليه وأخرج أحاديثه وضبط نصَّه: محمَّد حسن حلَّاق ومحمَّد أحمد الأطرش. ط.1. دمشق: دار الرَّشيد. بيروت: مؤسَّسة الإيمان، 2000.

حجازي، محمود فهمي. **علم اللُّغة العربيَّة مدخل تاريخي مقارن في ضوء التُّراث واللُّغات السَّاميَّة**. الكويت: وكالة المطبوعات، د.ت.

ابن حزم. **الإحكام في أصول الأحكام**. حقَّقه وراجعه: لجنة من العلماء. ط.2. بيروت: دار الجيل، 1987.

حسين، فضل الله. **من وحي القرآن**. بيروت: دار الملاك للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، 1998.

حلمي، خليل. **مقدِّمة لدراسة فقه اللُّغة**. د.م: دار المعرفة الجامعيَّة، 1993

أبو حيَّان، **البحر المحيط**. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون. ط.1. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2001.

خشيم، رجاء عبد الرَّحيم. "دلالة فاعول." **مجلَّة دراسات تربويَّة**. العدد 18. نيسان 2012. ص.101-136.

الزَّمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. **الكشَّاف عن حقائق غوامض التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل**. ط.1. د.م: مكتبة العبيكان، 1998.

السَّامرَّائي، إبراهيم. "ردٌّ على مقال عربي-آرامي-عبري." **مجلة سومر**. العدد 3.1989. ص.ص. 38-41.

أبو السُّعود، بن محمَّد الحنفي. **إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم**. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. د.م: مطبعة السَّعادة، د.ت.

السَّمين الحلبي، أحمد بن يوسف. **الدُّرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون**. أحمد محمَّد الخرَّاط. دمشق: دار القلم، د.ت.

السُّيوطي، جلال الدِّين. **الدُّرُّ المنثور في التَّفسير بالمأثور**. تحقيق: عبد الله عبد المحسن التُّركي. ط.1. القاهرة: مركز هجر للدِّراسات العربيَّة والإسلاميَّة، د.ت.

الطُّوسي، أبو جعفر محمَّد بن الحسن. **التِّبيان في تفسير القرآن**. بيروت: دار إحياء التُّراث العربي، د.ت.

ابن عاشور، محمَّد الطَّاهر. **التَّحرير والتَّنوير**. تونس: الدَّار التُّونسية للنَّشر، 1984.

ابن عطيَّة. **المحرّر الوجيز**. تحقيق: عبد السَّلام عبد الشَّافي محمَّد. ط.1. بيروت: دار الكتب العلميَّة، 2001.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدِّين. **لسان العرب**. د.م: دار صادر، 2003.